الصوت من وراء القبر

روى لنا بعضهم القصة التالية قال : —

حدث منذ سنة من الزمان ان حضرتُ عرساً في الكنيسة الفلانية ولما انتهت صلاة الاكليل وهنأتُ العريس والعروس التفت اليَّ رجل من معارفهما الاخصاء وقال لي لقد انتقل المستر سواين من الجحيم الى الجنة . وكنت انا ضيفاً طارِ طريق في ذلك البلد فقلت لهُ وكيف ذلك اظنك تعني انهُ شيخ قضى عمرهُ فيما لا يحمد واقترن الآن بهذه الفتاة الحسناء . فان العريس كان يبين لي كأبن خمسين سنة والعروس كابنة عشرين على الاكثر . فقال كلاَّ فان المستر سواين من افضل رجال بلدنا سيرةً وسريرةً وهو لا يتجاوز الاربعين من العمر لكن حدث لهُ وهو في العشرين من عمره ان التقى بفتاة اميركية اكبر منهُ سنًّا لعلها كانت في الثلاثين من عمرها . كانت تسيح في هذه البلاد وحدها فاحبَّها واحبتهُ وتزوج بها ثم وجد انها سليطة صخابة قوية الشكيمة تتناول المورفين والكوكايين فوق ما تشربهُ من المسكرات . لا تكاد السيكارة تفارق فاها . فصبر على قسمتهِ وجعل يطوف بها من مكان الى آخر وهي لا يهدأ لها روع . واشتدَّ بها القلق اخيراً واصيبت بعارض من الجنون فاضطر ان يضعها في بيمارستان بسويسرا وعاد الى اشغالهِ هنا . وفي الشتاء الماضي اتاهُ من سويسرا ان الداء اشتدَّ عليها وهي في حال النزع . وكان السفر الى هناك متعذراً حينئذٍ وبعد ايام اتاهُ نعيها فحزن عليها او اظهر الحزن على جاري العادة بلبس الثياب السود وربط العصبة السوداء على زنده . عادة سخيفة لا موجب لبقائها . وكان قد عرف عروسهُ الجديدة ماري دنكن هذه وهي طفلة ولا شبهة عندي انهُ كان يحبها وهي تحبهُ . لا اقول انهُ كان يتحين موت زوجتهِ ليقترن بها ولكن هذا ما حدث فانتقل من الجحيم الى الجنة

وقعت هذه القصة من نفسي حيث سمعتها موقعاً عظيماً وفكَّرت فيها في الليل التالي وانا اقول كم من البيوت خرب بواسطة المورفين والكوكايين وانواع المسكرات . ولما تناولت جرائد الصباح في اليوم التالي وجدت فيها خبراً اقشعرَّ منهُ بدني ذلك ان المستر سواين هذا الذي حضرتُ عرسهُ امس لم يكد يدخل بيتهُ بعروسهِ

حتى سمع جرس التلفون يقرع فبادر اليهِ وهو يحسب ان احد اصدقائهِ الذين لم يتمكنوا من حضور العرس يريد ان يهنئهُ بالتلفون لكنهُ سمع بهِ صوت زوجتهِ المتوفاة وهي تقول لهُ « وليم وليم اياك والزيجة انا زوجتك لا غيري أه أه أه » فوقعت السماعة من يدهِ واستغاث وأغمي عليهِ . فبادرت اليهِ العروس ومن كان معها واسعفوهُ بالتفرك والمنعشات حتى افاق . ووصل الخبر الى حميهِ وحماتهِ فاسرعا اليهِ فاخبرهما بما حدث وقال لهما ما دامت زوجتي حية فلا يحل لي حسب شريعتنا الاقتران بابنتكما . قال ذلك والدموع ملء عينيهِ . اما العروس فاستندت الى ذراع والدتها وهي تحاول التجلُّد ولكن خنقتها العبرات إما حزناً على فراقهِ او خوفاً من العار وعادت مع والديها الى بيتها

وكان شغلي يقضي عليَّ بالبقاء في ذلك البلد سنة او اكثر فتتبعت قصة هذا الرجل باهتمام شديد لعلي اعرف الى اين تنتهي. وكنت اقرأ كل ما يكتب عنهُ في الجرائد المحلية وما اكثر ما كانت تكتب حتى كأنَّ الناس نسوا اخبار الصلح واغتصاب العمال ومحاكمة الامبراطور ومقتل القيصر وسائر فضائع البلشفيين وصار همهم الاكبر ان يعرفوا ما حدث للمستر سواين وهل زوجتهُ لا تزال في قيد الحياة او ان روحها تخاطبهُ من عالم الاموات وانا اروي الآن ما استخلصتهُ من حديثهِ

مضى اسبوعان بعد ذلك ولم يسمع المستر سواين صوت زوجتهِ وكان قد كتب الى مديرة البيمارستان الذي كانت فيهِ في سويسرا والى قيس الكنيسة الذي جنزها ودفنها يخبرهما بما وقع لهُ ويطلب منهما زيادة التفصيل عن وفاتها. فجاءهُ من القيس كتاب مفصل وفيهِ صورة فوتوغرافية للمدفن الذي دفنت فيهِ والحجرة التي بنيت عليهِ وهناك رخامة كبيرة نقش عليها ما نصهُ «مرغريت بتمان سواين ولدت بنيويورك في ١٥ مارس سنة ١٨٦٩ وتوفيت في جنيف في ٢٧ يناير سنة ١٩٢٠ طوبى للاموات الذين يموتون في الرب »

فقال ان موتها لا شبهة فيهِ ولذلك فالذي خاطبني بالتلفون هو روحها وهي تقصد تعذيبي ميتة كما عذبتني حية . ثم خامرهُ ظن انها قد تكون احتالت على مديرة البيمارستان ووضعت واحدةً مكانها وهربت هي منهُ ولا تزال حية ترزق وهي نفسها التي كلمتهُ بالتلفون . ساورتهُ هذه الافكار حتى اعدمتهُ الراحة . فاشار عليهِ اصدقاؤهُ ان يلجأ الى الوسطاء الذين يناجون الارواح فيعلم منهم علم اليقين

هل ماتت زوجتهُ او لا تزال حية . فقصد وسيطة اشاروا بها عليهِ وحالما وقع نظرها عليهِ قالت لهُ مَن هذه الآتية معك فالتفت عنة ويسرة ولم ير أحداً . فقالت انني ارى معك شبح امرأة طويلة القامة نحيفة القد شاحبة اللون ترتجف كالقصبة

فقال في نفسهِ هذا شبح زوجتي وارتعدت فرائصهُ وكاد يغمى عليهِ . فقالت لهُ الوسيطة املك روعك واجلس ولا تخف فقد ذهب الشبح الآن اجلس اجلس. واغمضت عينيها وتولاها البحران وجعلت تتمتم بكلام غير مفهوم . ثم قالت « نعم نعم انا نسيبتهُ زوجتهُ أه أه لا شيء هنا ظلمة ونور اعداء واصدقاء جم غفير من كل الاجناس . تعب الانسان هن ضميره وراحتهُ من ضميره . كلنا هنا مستريحون خلصنا من المرض قولي لهُ لا راحة في الدنيا انما الراحة هنا الراحة وراء القبر انا اراقبهُ ولا ادعهُ يعمل شيئاً لا ادعهُ يعمل شيئاً غير واجب او غير جائز قولي لهُ يكفي الآن في النوبة التالية اخبرهُ اكثر . يجب ان يكون كريماً انتهى انتهى ». ثم صمتت نحو عشر دقائق وهي تتمطّى وتحاول فتح عينيها واخيراً فتحتهما والتفتت عنة ويسرة وهي تقول اين انا من انت وحدّقت اليهِ وقالت « آه المستر سواين ماذا قلتُ لك اظنني رأيت الشبح نفسهُ الذي رأيتهُ واقفاً الى جانبك حينما دخلت . انت موفّق اكثر من كثيرين غيرك ويظهر لي انك نفسيٌّ واذا مارست الكتابة الآلية فلا يبعد ان هذه الروح نفسها تتجلّى لك وترشد يدك لتكتب وتخبرك بامور كثيرة انتهى انتهى الآن »

فاعطاها ورقة بجنسة جنيهات وخرج وهو يشعر كأنهُ محمول بين السماء والارض والعالم كلهُ شخوص واشباح تمرّ وتنقضي. ولم يكد يصل الى بيتهِ حتى سمع جرس التلفون يقرع فنظر الساعة واذا بصوت امرأتهِ يقول لهُ «وليم وليم اياك والزيجة انا زوجتك لا غيري أه أه أه » . وكان الى جانبهِ كرسي مستند اليهِ فجلس عليهِ وكأنهُ فقد كل رشد . ودخل الخادم ووجدهُ شاخصاً الى سقف الغرفة وعيناهُ لا تتحركان فدنا منهُ وايقظهُ وسار بهِ الى مقعد فارتمى عليهِ وقضى بقية ذلك النهار والليل الذي بعدهُ وهو بين نائم ويقظان

ومرت الايام وهو يتردد على الوسطاء فيسمع منهم كلاماً مبهماً — الصوت صوت الوسيطة او الوسيط ولكن المعاني على ما فيها من الابهام تدل على انها معاني امراتهِ. ثم يعود الى بيتهِ فيسمع صوت زوجتهِ نفسها بالتلفون صريحاً واضحاً . هناك

روحها تكلمهُ كلاماً مبهماً وهنا جسمها يكلمهُ كلاماً صريحاً ولو كان متكرراً على نسق واحد. فقام في نفسهِ ان شعورهُ اختلَّ ولا بدَّ من ان يصاب بالجنون عاجلاً او آجلاً. ساورتهُ هذه المخاوف نهاراً وليلاً وحرمتهُ الراحة واستولى عليهِ النحول

اما مس دنكن التي عُنِد لهُ عليها فكانت تتمم اخبارهُ وتقرأ كل ما يكتب عنهُ في الجرائد وتزورهُ احياناً وتحفت هي ايضاً وكادت تنقطع عن الطعام لشدة حبها لهُ وقلقها عليهِ. ثم جعلت تستشير الوسطاء فتسمع منهم كلاماً مبهماً لا يقوم لهُ عندها وزن ولا معنى. نعم انها كانت ترى لهُ علاقة شديدة بقصتها مع المستر سواين ولكنها كانت تفسر ذلك بانهُ مبنيٌّ على ما ينشر في الجرائد كل يوم عن قصتهما. وصارت تستحي من صديقاتها وودت ان ترحل الى بلاد اخرى حيث لا يعرفها احد ولكن قلبها لم يكن يطاوعها على الابتعاد عنهُ. وكانت تقول لوالديها ان قلبها يدلها على ان الاركة حيلة وخداع ولا بدَّ ما ينجلي يوماً ما

واخذ المستر سواين قلماً ذات يوم ليكتب لها حتى تنقطع عن زيارتهِ لانهُ صار يرى ان آخرتهُ في البيمارستان. واذا يده تكتب في موضوع آخر تكتب كأنَّ روح زوجتهِ تحرك يدهُ لتكتب كما ابتدأت الوسيطة الاولى وبما كتبتهُ في النوبة الاولى « وليم وليم لا تنسَ زوجتك واعلم انها تراقبك دائماً العالم فانٍ والاجسام فانية ولكن الارواح باقية السفر انتفع لك (Ubi beni ibi patria) (اي حيث اوفق فهناك وطني)

ولما افاق من غيبوتهِ ورأى ما كتبت يدهُ وهذه العبارة اللاتينية فيهِ دهش اشد دهشة لانهُ لا يتذكر انهُ نظر كتاباً لاتينياً او سمع عبارة لاتينية بعد خروجهِ من المدرسة منذ اكثر من عشرين سنة

وتوالت الكتابة الآلية وكانت دائماً محكمة المعاني ولو كانت متقطعة غير منسجمة مثال ذلك « اطلب لي تيتي . ماذا كتب لك القسيس . حقيقاً غير بعيدة لماذا لا تذهب اليها . اهالي سويسرا اناس يحبون الاستقلال مستقلون اكثر من البلشفك. لويدجورج مال الى المتاجرة مع البلشفك وفرنسا لا تقبل. فرنسا على رأي نبوليون. رجع من مصر وبسببهِ اكتشف الحجر الرشيدي. القطن المصري غالٍ جداً لا بد ما يهبط عنهُ بع ما عندك منهُ كنتراتات بع على المكشوف فتربح لا تعدق كلامي هذه اضغاث احلام احلام انسان مريض (Negri somnia) يكفي الآن

ودام الحال على هذا المنوال الى شهر يونيو الماضي وقد عيل صبر مس دنكن ورسخ في ذهنها ان الوسطاء كلهم غشاشون خداعون وانهُ يجب عليها دينهً وشرعاً وطاعة لقلبها ان تذهب الى بيت المستر سواين وتسكن معهُ وتمرضهُ لانهُ مريض عقلاً . فذهبت اليهِ ولما دخلت وجدتهُ جالساً في كرسي كبير وقد صار كالخيال فنهض واستقبلها وحاول ان يظهر لها البشاشة على قدر طاقتهِ واجلسها في كرسيهِ وجلس الى جانبها على كرسي واطئ . فجعلت تشدد عزائمهُ واخبرتهُ انها آتية لتقيم معهُ ولا تستطيع ان تفارقهُ . فقال لها انت تعلمين حبي لكِ ومقدار تفضي اذا اضطررت ان افارقكِ لكنني لا استحل ان اظلمك يا ماري لانهُ قد يثبت ان زوجتي ماتت فعلاً ولكن هذا لا ينفي انني اصبت بدخل في عقلي سيفضي بي الى الجنون حتماً فلا استطيع ان اضعكِ في ذمتي . سامحيني يا عزيزتي سامحيني وارثي لحالي . قال ذلك وخنقتهُ العبرات فالقى رأسهُ على ركبتيها وجعل يبكي كالطفل . وهو لكذلك واذا بجرس التلفون يقرع فقالت لهُ دعني انا اسمع واتكلم ونهضت وسكت الساعة واذا بامرأة تنادي المستر سواين فقالت مس دنكن انا اتكلم عنهُ . فقالت تلك قولي لهُ ليأتي حالاً الى المستشفى الفلاني فان امرأة كانت سائرة في الشارع على غير هدى فصدمها اتوموبيل كبير من اتوموبيلات الجيش فوقعت مغمىً عليها وحملها رجال الاسعاف الى هنا والمرجح ان سلسلة ظهرها انكسرت وهي في حال النزع وطلبت ان ترى المستر سواين قبل موتها . وكانت مس دنكن كلما سمعت كلمة تكررها لهُ وكان قد وقف الى جانبها وصوت التلفون واضح حتى يسمعهُ هو ايضاً . فلما انقطع الصوت نظر اليها ونظرت اليهِ وقد عرتها الدهشة واول كلمة استطاع النطق بها هي قولهُ اذاً انا ذاهب فقالت وانا اذهب معك

وفي اقل من ربع ساعة كانا في باب المستشفى فاعادت عليهما رئيستهُ قصة المرأة بالاختصار وسارت بهما اليها واذا هي الخادمة التي كانت مع زوجتهِ وبقيت معها الى حين وفاتها . فاعترفت لهُ ان زوجتهُ اوصتها لتكلمهُ بالتلفون من وقت الى آخر غيرةً منها فكانت تقلد صوتها وتكلمهُ . ثم قالت والآن قد دنا الاجل فسامحني عما بدا مني ومدت اليهِ يدها وفيها خاتم الزيجة وهو خاتم زوجتهِ ولم تكد تنطق بالكلمة الاخيرة حتى اسلمت الروح . انتهى